وفي البداوة حسن غير مجلوب

استنطاق محمد الثبيتي: تهجيت حلماً.. تهجيت وهماً

■ د. خالد فهمي



غريق بليل الهزائم سيفي
ورمحي جريح
ومهري على شاطىء الزمن العربي
يلوك العنان
أعانق في جسدي شبحاً
مثخناً بالجراح
ومرثية للكمي الذي ضاع من يده
الصولجان



ربما تصلح مقولة الكلمات المفاتيح مدخلاً لاستنطاق ديوان الشاعر السعودي محمد الثبيتي، الذي يحمل عنوان: (تهجيت حلماً.. تهجيت وهماً).

وربما صح من جانبنا أن نقرر أن البداوة وما يعلق بها من هوامش دلالية تعكس كبرياء العربي وأنفته، والتي لحقها غير قليل من الانكسار في هذا الزمان - هي الكلمة المفتاح لقراءة هذا الديوان، حتى صح من جانبنا أن نستدعي عجز بيت للمتنبي ليكون عنواناً لهذا القراءة، يقول فيه: وفي البداوة حسن غير مجلوب.

أنت واجد تمثيلاً وتكثيفاً للبحث عن هذه الروح العربية، التي استترت قهراً وراء هزائم تصنعها الروح العربية، وإنما فرضت عليها فرضاً - في تلمس الشاعر لمعجم البداوة بصحاريها الممتدة ونباتاتها المتناثرة، وما يشع منها من روائح، لا تكاد تشتبه بغيرها. وأنت واجد كذلك من وراء هذه القائمة الممتدة من ألفاظ حقل البداوة ما يشي بما نقول. تأمّل الأسطر الشعرية التالية، تخبرك بمدى كثافة مفردات هذا الحقل الدلالي، الذي يسكن جسد هذا الديوان كله.

يقول محمد الثبيتي (ص١١):

يختال فيها شميم العرار

ويقول (ص ٢)٠:

فيه انسكاب الدلال
ورائحة الشاذلية
والهيل
والزعفران
يقول (ص ٢١):
ويعشقك النخل
والذكريات بسقط اللوى
والكثيب الذي وسدته المنايا
كليباً

•••

ويقول (ص ٢٤):
وتنمو على شالك البدوي
حقول العنب
ويقول (ص ٢٤):
سيدتي ترتدي النرجس الجبلي
ويقول (ص ٣٢):
رقصة تنتشي في حدائي، طريق
المجرة يبدأ من داخلي
فامتزجت مع الرمل
ويقول (ص ٤٠):
عرفت بأن الصحاري
تخبيء في شفتيك
اللظى
ويقول (ص ٤٤):
أنا لحنك البدوي.. أنا
ويقول (ص ٤٩):
السماء القديمة مغلقة في طريق القوافل
ويقول (ص ٥٤):
تمتد هذي المفازة لاهثة
ويقول (ص ٥٦):
وتبقى عروس الرمال
الجميلة..
نحتاً بديعاً من العاج
والأبنوس
ويقول (ص ٥٨):
حينما يصدر عنه الرعاء
وحين يقول هجير المفازة

هذه النصوص المؤكدة من جانبنا تعكس هذه الروح البدوية الشفيفة، التي تطل من حنايا الديوان كله، وهي الروح التي عزّت بها الحياة العربية، عندما سكنت النفس العربية، وانتكست عندما فارقتها وحلّت محلها روح غريبة أخرى، لا نبالغ إن استعرنا في وصفها تعبير المتنبي عنها أنها غريبة الوجه واليد واللسان!

ونحن لا نبالغ في القول بسطوة هذا المعجم على هذا الديوان، الذي سكنته شاعرية متدفقة. ويمكن التدليل على سطوة معجم البداوة بجانب ما مر بقصيد: محمد الثبيتي، التي عنونها «فواصل من لحن بدوي قديم»؛ ففي هذه القصيدة تبدهك لوحة للوجه المأمول المُتمنى، وجه البدوي المُشرع كالسيف، الذي طالما زرع الرمال خطى، يلفّه أينما رحل شعاع من شذا الدهناء.

في هذه القصيدة نوع من الحنين العجيب المستولي على الشاعر، وكأنه أم تتحسس وجه وليدها العائد إليها بعد غياب طويل؛ أو أم تتحسس صورته أو آثاره من بقاياه بعد ما غاب، وترجو آملة وحالمة أن يعود، واسرح بأناملك على ملامح الصورة التالية، لتشعر معي بهذا الحنين الدافيء:

تنهل الصحراء من عينيه
يرتمي الشيح على صدر الروابي

ويصل هذا الغرام بهذه الروح الشفيفة الغائبة ليحكم استدعاءات الشاعر التراثية التي يُطل من ورائها جميعاً ذلك الحلم بالعود الحميد للمجد العربي الآفل.

أنت واجد هذا الغرام وهذا الحنين في داحس وما دهاه، وفي دار عبلة التي يحيها إذا ما مرّ عليها صباحاً، ومن تذكر الذكريات على أطلال دمن الحبيبة، ومن استدعاء عنترة الذي خلع ثوبه الجاهلي ليصير رمزاً للعربي الأبي، ومن الاستغاثة

بمن سكن هذي الأوطان على مر الزمان:

ترى يا ابنة العم

ماذا جرى؟

وهل حمد القوم عند الصباح

السُرى

وداحس..

ماذا دهاه؟

...

أيا دار عبلة

عمت صباحاً

ويا دمن الذكريات الحبيبة

من غال في صورك الصبوات

ويدعون في كل نازلة

عنترة؟

في ديوان محمد الثبيتي سفر نحو أمجاد وطن، طالما ساد وعزَّ، وسعدت به الدنيا، وفي ديوان الثبيتي حلم يترجل بين زمان الرشيد الذي يشبه الخيال، وزمان ماء السماء الذي انتشى فيه زمن الكبرياء.

في ديوان الثبيتي بحث عن روح غابت بسبب من أشياء كثيرة، وسببّت عذابات واغترابات تلمح صداها عند المراسي والمطارات، ولكنه يُلح إلى أن شيئاً من كبرياء الماضي لن تتأتى عودته دون استجماع روح الحصان العصي، ومن دون استعادة بقايا الرمل وعبير الخزامى، التي كانت تسكن هذه النفس المثخنة بالجراح.

في ديوان الثبيتي مأتم مقام بسبب انكسار النفس العربية، وتوزع العرب، وتمزق الخريطة العربية.

وفيه مراوحة بين الحلم بعودة الخريطة متناسقة مترابطة الأوصال، وبين وهم محبط عند الاستيقاظ على الواقع المر؛ فالحلم يقوى ويقترب بنا من خير المجد القديم عندما نتمثل أنفاسه، ونستدعي من الذاكرة إلى الواقع كل رموز ذلك المجد وحقائقه، وساعتها:

علـى سـاعـدي يــورق الـجـدب

يـخـضـر فـي ظـلـه مـولـدي

ويجثم على صدر هذا الحلم ما يقترب به من حدود الوهم، عندما تقفز أحزان الوطن الممتد الغريب عن روحه المسافرة في الزمان:

كأني لم ألق في ماء دجلة

والنيل

حزن الصحاري

ولم أسق من عرق الشمس

تيما..

وزحلة..

والقيروان..

لم يكن عبثاً أن يختم محمد الثبيتي ديوانه بقصيدة: صفحة من أوراق بدوي، ومن ورائها قصيدة مسافرة.

في أوراق البدوي استجماع لما لا يصح نسيانه أو تجاوزه، فيها نبل فارس تكسوه أنوار الشمس بهجة، يبحث في جراحه ليتقوى بها، ويدرك أن فيها مكمن بداياته. وفي قصيدة مسافرة أمل يمكن الوصول ما دامت القافلة قد تحركت، قد تتعطل أحياناً لكن استبصارها بضوء الفنار، واستمرارها في المسير، وإدراكها مخاطر العدادات والإغارات من أمثال التتار - يؤذن بالوصول.

ستعود الأرض كل الأرض، عندما يدرك العربي حقيقة ذاته، هذا ما يود هذا الديوان أن يبوح به، في لغة تلفها روح وجدانية شفيفة، يلفها الحزن النبيل على هذا النبيل الذي يصارع آلام الانكسار، ويسعى نحو استعادة الوطن الذي لطخت معالمه سوءات مستعارة.

وفي هذا الديوان سفر نحو أصول هذه النفس، في لغة شاعرة تشهد بتطور الشعر السعودي المعاصر.

● الأستاذ المشارك بكلية التربية للبنات بالجوف.